لعب العيال

بقلم : وصفي آل وصفي

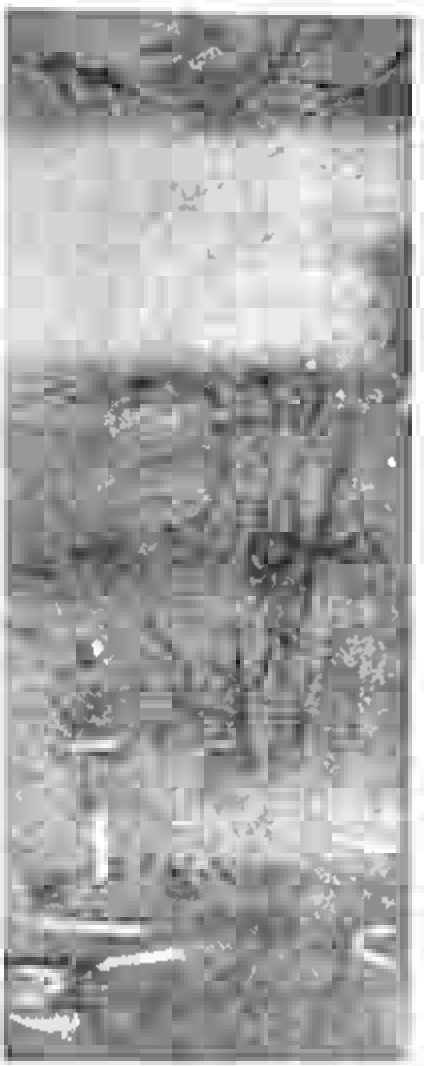

أمي ، واختي وأخي ، وعمي ، وزوجها ، وأنا .

اجتمعنا في غرفة الضيوف ، شرب الشاي وبلامح بعضنا البعض . كنت اعرف سبب الاجتماع ، فقد حدثتني أمي ، وجادلتني وتركتني مستاءة ... وطاردتني أختي ، حاورتني ، وصايغتني مداعباتها طوال الأسبوع .. ، لو أعرف فقط من تحبين ؟! أحد أمرين ، تحبين .. او تحبونة ! ، وكلمني أخي .. عمي ، لم يعدني بأن يستعمل «سلطته» باعتباره ولي امري المسئول عن مستقبلي ! أما عمتي وزوجها فكان وجودهما أمرا طبيعيا .. وهو صديق الحاج نصيف جمعتهما الوظيفة حتى أحيلا الى المعاش فجمعتهما قهوة «المالية» ، وهي صاحبة الحاجة ستية «الروح بالروح» ، والحاج نصيف والحاجة ستية والدا عمر .. الدكتور عمر ، والدكتور عمر او بتعبير ادق أنا والدكتور عمر سبب الاجتماع .

كنت أحب الشاي ، يلذ لي أن ارشفه على مهل ، بعد ان صيقي وتوتري عطلا استمتاعي به فتجرعت

فجالي وتناولت كيس الصوف اشمل يدى ريثما يهجم «المتآمرون» ..

وكانما كانت امي تنتظر حركتي هذه ، فما كدت امقد يدي بصمة غرر حتى امسكت بي

ـ سعاد ، دعي الصوف واشتركي معنا

لم يكن يسعني ان اتجاهل كلامها ، فارخيت يدى في حجري ورفعت وجهي امس عينيها بصراحة صامتة .. لكنها تفادت نظرتي واستقامت على القور :

ـ ليس بيننا غريب ، أخوك واختك، عمتك وعمك .. كلنا تهمنا مصلحتك. عمتك تطلب ردا ، الدكتور عمر امه كلمتها تانية ، براه مناسبا ، فما رأيك ؟

وابتسمت رغما عني ، احتها في صدري : على خيرة الله ، مادمتم تروته مناسبا ، مبروك ، تزوجوه ! وابتسمت رغما عني .. واذا عمتي تهلل : «الدر اتتم باجماعة ، وعردى بالم محمود. ام اوعرد أنا » !

دعرت .. حسبت ان تتحب امي لصحتها ، او ان تفعلها هي . كدت ارجوهما ان يشفقا على ويراعا بي، ثم تذكرت انني عاهدت نفسي ان الزم الصمت فلا انبس بكلمة في هذا الاجتماع، لقد تداولوا وتشاوروا وقرروا عقد اجتماع عائلي ، دون ان يصارحوني طبعا بانهم يبرون ، الضغط ، على ، عليتكلموا هم اذن ويكفي اني استمع ! والهيت نفسي بالتفكير ، حتى اسمع جديدا .. قلت اطمئنها : فيم الخوف والذعر ؟ فلتزعرد امي رعمتي ، لتزعرد اختي ، ليزعردوا جميعا ومعهم اخي وزوج عمتي .. فانا في حمى القانون. لن يستطيعوا مني شيئا ما لم ارض عمر

ـ الدكتور عمر ، زوجا ، واذا كان ثمة من يحب أن يخاف ، يذعر ، فهو الدكتور عمر ، العريس الذي يريدون ان يزوجوه اساءة لاتحبه .. يريدون؟ الذي يريد أن يتزوج اساءة لا تحبه !

وجاءني صوت اخي، حشرجا ان تتقمص شرانه فصم على ما يداري من غضب :

ـ سعاد ، اسمعي .. لم تعودي صغيرة ، انا لم اكتف بكلام روح عمتك سألت عن الدكتور عمر الكثيرين ... وانت ايضا قابلته اكثر من مرة ـ ماذا تريدين اكثر من ذلك ؟

رفعت اليه وجهي أعاتبه فلم يفهم نظرتي ، كان من العسير عليه ان يفهم ـ فأغمضت عيني امتهل : أنقذني يا رب ، احمني من اخي ـ !! ودع لي الباقي !

وصاحت اختي تملة عرق أحمر العنود

ـ صحيح ـ ماذا تريدين اكثر من ذلك يا سعاد ؟!

فنظرت اليها في صمت ، أستمع الى دهشي يرد عليها ساخرا : اريد أن أحبه! الرجل الذي سوف أمنحه جسدي وروحي ، حياتي ، لا بد أن أحبه . قد يكون عمر شابا طيبا ، لا عيب فيه ، ولكن هذا لا يكفي يا سوسن ، انا لن اتزوج الا رجلا احبه ، أعرف عن يقين

انه .. انني احبه . واحب يا سوسن حتى آخر عبر تلك الأغاني التي ترددينها رائحة عادية . الحب ...

وتكلم روح عمتي :

ـ اسمعي يا سعاد يا بنتي .. والله لولا انني أعرفه جيدا ، واعرف اباه لا تدخلت .

وعقبت عمتي :

ـ والله لو المرحوم والدك يعيش لأعجبه ، دكتور وشاب .. وأدبه لا يعلى عليه .. ماذا تنقص الواحدة أكثر من هذا ؟

وقفز لسان سوسن في فمها فاطلقته :

ـ الحب ياعمتي .. هو موظف تشغله عندها؟ ألا تدخين الى السينما ياعمتي؟!

فصرخ اخي زاجرها :

ـ سوسن ! كفى .. عيب الكلام الفارغ! كبرت على لعب العيال احترمي نفسك ..

وشرد فكري مسكين اخي ، مسكين حقا .. روحه بطريقة ، محترمة ، أكثر بكثير من لعب العيال ! تزوره الى منيرة، روحهما .. روحهما العائلتان لمجرد انها حيلة واصيلة وأنه شاب ومهندس وأدبه لا يعلى عليه ، وقضى شهر العسل فندقا ، كوميدنا الاحمق ، المخرفة ، وحاولت الأسرتان بطبيعة الحال ان توفقا بينهما بكافة الطرق .. بأية طريقة وأي شكل .. فلم تفلحا ، ومع ذلك لم يجرؤ أحد على الاعتراف بأنه لا يريده ، مجرد ، وانها هي ايضا لا ، تريده ، .. حتى وقع الطلاق !

ويبدو أنني سببت انسحاب روحي ومصمصت شفتي ، وخاطري يعاتب أخي حق انت ياحمود ، انت تضغط على .. بعد التجربة ؟ لا بد اني فعلت ذلك دون انتباه . فقد لطمني صديقه برمجر في كبرياء غبية وهو يلوح بيده الى ناحيتي :

ـ والله عال ! كلاما لا يعجبها !

وتحرك لساني ، ولكني لم اسمع صوتي ، تعلقت بحلقي غصة .. تبض عنقي .. واختلج أنفي والتهبت اذناي، طرفت بعيني فدارت دموعي وبكيت ..

***

كان بكائي ابدانا بفضل الاختناع ..

بطت سوسن تحتضني وتقبلني .. حتى أقتل البكاء لأحتو بقلبي فجعلت تحتضني وهي تردد : خلاص يا حبيبتي ولا يهمك .. لا تريدينه ؟ خلاص .. لا تأخذيه ! ، ثم تقرصني وتميل فتقبلني لتهمس : « دموع ... بكاء .. مزيدا من الدموع والبكاء » ؟

كاد صدري أن ينفجر بالصياح ، لولا أن أحدني رد فعل حاد فصرخت .. وجريت الى غرفتي وأغلقت الباب ، وارتميت على فراشي أدفن وجهي في وسادتي الحريرية ، وبكيت ما تبقى من دموعي . ومضى بعض الوقت وأنا مبكية على وجهي فيما يشبه الحلم ، كانت الأصوات تأتيني من غرفة الصيوف مجرد حسيس لا شكل له ولا معنى .

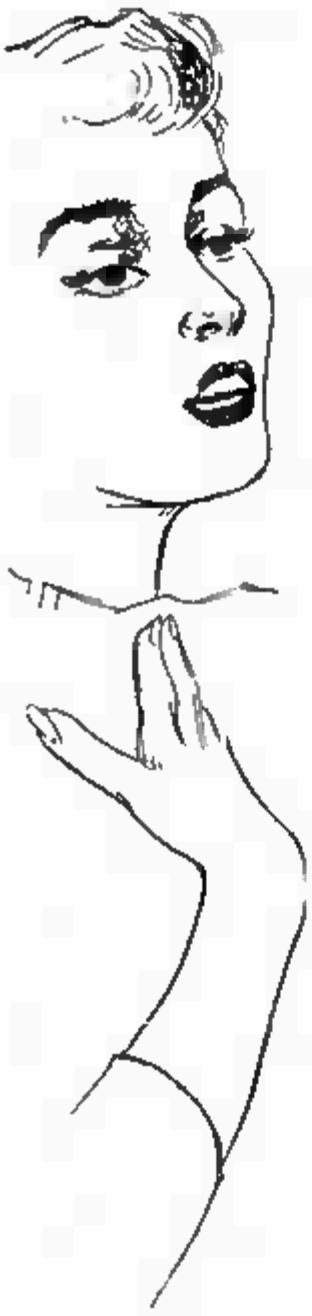

فانصرف انتباهي عنها تدريجيا وراح يجتر بعض المواقف مما أفضى بنا الى اجتماع غرفة الصيوف .

هذا عمر .. الدكتور عمر ، اول مرة شاهدته عندما ذهبت الى عيادته مع امي. بعد ما عاد من الخارج ترددت عمتي الى منزلنا تلح على امي ان « تجربه » وذات يوم سألتني أمي :

ـ سعاد ، مارأيك .. أفكر في الذهاب الى الدكتور عمر فقد ارتاح معه أكثر ؟

وابتسمت فعادت تسألني :

ـ ما يضحكك ؟

ـ أبدا ، تذهب اليه فقد ترتاح عمتي !

وذهبت معها ..

وخرجنا من عيادته ووقفنا ننتظر المصعد ، فقالت امي :

ـ يبدو ان حلال ، وظريف .. أليس ظريفا يا سعاد ؟

وعبست اصطنع الدهشة ، وقلت اداعبها :

ـ مستحيل ؟

ـ ما هو المستحيل ؟

ـ صغر يا ماما .. عليك !

فضحكت تلعثم درسا خفيفا في الأدب ..

وبعد أسبوعين صحبتني الى عيادته للمرة الثانية ، فلاحظت انه يحاطبني بطريقة رسمية يشوبها ذلك البرود

الذى يشيعه فى احاديثنا عدم الاهتمام، لم يتغير شيء من طريقة معاملته لى فى المرة الأولى ، غير انى تذكرت حديث امى عن طرفه فراقبته ، كان طريفا حقا .. مع امى ، اما معى فكانت العبارات القليلة التى استقبلنى وودعنى بها خالية تماما من اى طرف او نكتة .

استراحت امى الى الدكتور عمر ، فاصبح طبيبها .. وطبيب العائلة فيما لا يستلزم اكثر من استشارة تليفونية، وكنت ارافقها كلما ذهبت الى عيادته ، حيث أجلس كشخص أخرس .. اعجب لهما يتبادلان «السلامات» و «المرشة» كصديقين قديمين واحاول ان أتذكر اين قرأت أن « المرأة مخلوق رقيق تأسره المعاملة الرقيقة » ! وانقشع البرود عن معاملته لى تدريجيا ، فصار يبتسم وهو يحاطبنى .. وهو يرحب بى .. وهو يودعنى، بيد انه لم يتخلف عن الرسمية ولم يتسامح معى أبدا .. وتشبهت بعد حين الى ان امى تعانى فى الاهتمام بزينتى كلما حان موعد ذهابنا الى عيادته ، واستعير تصرفها هذا كبريائى فكنت أتعمد الاهمال .. ودين اهتمامها المكشوف وعنادى المدلع الكثير من الخلاف والمناقرة والنكد والغضب .

وبدأت عمتى تكثر من زيارتنا ، وتطيل الزيارة .. وتفتح « سيرة » عمر فتمدح وتطنب . وفى النهاية ظهر روح عمتى ، وانتظمت زياراته مع عمتى .. مما الهم سوسن الكثير من التفسيرات المضحكة لما طرأ على الدنيا فتسبب فى هذه المحنة الطارئة بعد ان كانت ظاهرة موسمية لا تهب علينا فى غير الأعياد .

وذات مساء، وأنا أصبغ شعر امى .. سألتنى :

ـ سعاد ، حدا ـ ما رايك فى الدكتور عمر ؟

كانت سوسن فى الغرفة المجاورة تذاكر ، ولعلها كانت تطالع محاضرات الشريعة ، فسمعت السؤال وتطوعت بالاجابة :

ـ حدثتنا عمتى ، عن زوجها .. عن أبى عمر ، عن أمه ، انه لا قبله ولا بعده، كلها احاديث ضخمة ، ضخمة للغاية!

وضحكت ، غير ان امى استحثتنى همسا ، دعك من سوسن ، اسأل حدا .. ما رأيك فيه ؟ ، وحدست فى تلك اللحظة أن المحظور معلق فوق رأسى كسيف ، ، داموكليس ، ... المحظور ؟ طبعا ، كل ما يمس الانسان محظور ، والزواج على غير حب يمس الانسان ، وعمر .. وأنا لا أحب عمر .

وفجأة ، قبل ان أجيب ، أسندت امى رأسها الى صدرى تقول فى صوت واهن ، سعاد اسندينى ، انعص .. اووح .. يا سعاد ، فالقت فرشاة الصباغة واحتضنتها انادى سوسن لتستدعى الدكتور عمر ـ ثم سعلت بأمى حتى رقدت ، وصعدت الى حوارها أعتنى بها وادللها .. واهدهد مخاوفى .

أسرع عمر الينا فاستقبلته سوسن وقادته الى غرفة امى ، وبادرتنى قبل أن يدخلا ولكننى لم أنتبه الا وهو يلمس كتفى ويستادنى ، لو سمحت .. ، وارتبكت ، وضغطت من الفراش وقد

وحسى حياء يلتهب . وتقدمت سوسن بقف أمامي وتحسسني. أتاحت لي الفرصة لأستحب . ومع ذلك لبثت في مكاني لا أتحرك ... حافية عارية الكتفين متوهجة الخدين . ومضت لحظات ثم تكلم لم يوجه حديثه الى اى منا .. قال في هدوء دون أن يلتفت الينا : سليمه بادن الله . أطلقوا حادة بعض الشيء مياه ساخنة لعل الابرة لو سبحت وعطاء آخر .. » . فاستجبت في الحال وخرجت أهرول .

وبعد ايام انفردت بي امي وبدأت المعركة . اخبرتني أن أمه طلبت من عمتي ان تحس ، البطن ، وتتعهد بالخوء وتتعرف شروطنا ورغباتنا .. ورفضت ان أتحاور معها فحادلتني طويلا ثم فاصيتني مستاءة. وذاع الخبر فطاردتني سوسن تعلق بلسانها الساحر ، ثم تبعها محمود يجرب الأمر والزجر .. فلم اضعف . قلت لهم حسبما ، لا ، لا .. لا . وابيت أن اصارحهم بسبب رفضي . كان من الممكن ان اقول ببساطة لا يحسى . لا أحبه ، بهذه الطريقة لا يمكن ان احبه .. لو ان امي كانت تقرأ فيطور فهمها للزواج ، لو ان أخي كان قد تعلم من تجربته قاسى ما لحب لو أن سوسن كانت تعرف ما هو الحب .. الحب الحقيقي لا حب العيون الكحيلة والشعر الحرير !

لو .. لو ..

لو أنني احب عمر ..

لو أنه يحسني !!

وبدت ..

***

اصبحت فكان اول ما خطر ببالي أن اليوم موعد دخان أمي الى عيادة الدكتور عمر لقياس ، الضغط ، ثم تذكرت .. ومع الذكرى أحدثني الحيرة واسلمتني الى فكرة ، ترى هل اصاحب أمي اليه كالعادة ، ام اصبح فتحل محلي سوسن؟ لكن ماذا تراه يظن بي اذا لم أذهب ؟ سوف يحسبني أعاني حجلة تمسكني عن مقابلته .. سوف يذهب به الظن مذهبا او آخر .. وسوف يسوؤني ان يذهب به الظن اى مذهب . لا بد اذن من مواجهته . اجل أذهب فأواجهه ، كلانا مثقف ، نعيش في نور القرن العشرين .. لن تتحجل عمتي في الاعتذار الى امه ، فاذا دعيت اليه اليوم وأطلعته الرفض نفسي كان ذلك درسا لاينسى!

استقر رأيي فأزحت الغطاء بقدمي ونزلت من الفراش ، وفتحت النافذة وشرعت أمارس رياضتي الصباحية واناقش موقفي معه كيف أبدأ حديثي؟ كيف أحاوره اذا حاورني ؟ كيف اخلق باب الخطبة في وجهه بحيث لا أدع مجالا للبس .. ولا احرجه ؟ وأخيرا وقفت أمام المرآة اسوي شعري وأتأكد من وضوح الهالتين الداكنتين حول عيني ، كان على ان احتال لأمي . فلئن استعرت حيائها ظاهريا ووقتي الكثير من طيش سوسن وعصبية محمود وتطفل عمتي!

وعادت غرفتي فوجدت أمي تستمع الى ارغاب البيوت ، لم تشعر بانصرافي فأخذت اداعب عيني ... وقلت وأنا احتهد أن يخرج صوتي طفيفا

ـ صباح الخير يا ماما ..

وفي الحال اندفعت يدها الى مفتاح المذياع فاسكتته ، والتفتت الي تقول في لهفة

ـ صباح الخير يا سعاد ... هكذا باكرة ؟ أفعلت اخالك ، وعمتك .. من يعمل قبلك ؟!

كان غاية ما أريد أن يتهدج صوتي وأنا احييها ، ولكني لم أكد أفتح فمي حتى غلبني الانفعال فبكيت .. وانهرت راكعة أمامها ، وجهي في حجرها وانتحب

ـ ماما ! لماذا ؟ ماما .. ماما !

وفي حنان انسابت كفاها على شعري واحتضنتا دقني ، وقالت تعاتبني كأنما تخاطب طفلا غريرا

ـ عيب يا سعاد ، عيب .. لم تعودي صغيرة ! كم مرة وأنت تربصين خطانا لا عيب فيهم .. هي البنت مالها غير الزواج ؟

انحسر عني الضعف في لحظة ونفضت رأسي فاقتها .. وامسكت وكبتها اصيح

ـ ماما ..

ـ عيبي يا بنتي ؟

ـ كيف ستزوج عمر !

ـ كما تتزوج الناس يا بنتي ..

ـ والناس .. كيف تتزوج من فصلك ؟

ـ يخطبون ، يكتبون ويدخلون ..

ـ دعك من الخطبة ، ماذا يفعلون في كتب الكتاب ؟

ـ يتعاهدون ، يهبون انفسهم لبعضهم ..

ـ وماذا يفعلون في الدخلة .. لو سمحت ؟

انفرجت شفتاها لتجيب، ثم اطبقتا وانحنت تهز رأسها ، ومدت يدها تفرص وجنتي وتراجعني

ـ لا .. ردتها حبتي ، اردني يا سعاد ... قومي اغسلي وجهك وكلي لقمة ثم تكلم ـ عمر يا سعاد ..

وقبل أن تحدثني عن عمر قطعت افاضتها

ـ انا أحكي لك عن الدخلة .. ما يحدث في الدخلة ! في الدخلة يتحدون ... البنت تعطي روحها كل شيء ... جسمها .. كل ذرة في جسمها، وروحها .. كل خلية في روحها . والشاب يعطي امراته كل شيء ، جسمه .. كل ذرة ..

ـ ومالك يا بنتي .. هو حرام ؟

ـ وأبو الحرام لما واحد من الاثنين يكون .. أعني لا يحب الثاني ، تعصب أو استسلام أو شهوة .

ـ يتحابان بعد الزواج ، بعد الزواج الواحدة يا بنتي ..

وفجأة صحت عليها اقول

ـ ماما .. اعطني قبلة !

فرفعت يديها الى صدري بحركة تلقائية تصدني برقة

ـ اروني اولا وانا اقبلك مائة قبلة

ـ اراءت ؟

ـ رأيت العجب يا سعاد !

وابتعدت عنها لاجلس وأكلمها على مهل

ـ لا عجب ولا دهشة .. اذا كانت قبلة واحدة لا تريدين ان تعطيها لي . انا ، عصيا عليك . كيف تريدينني اذن أن اعطي حبـــــي كله وروحي كلها لعمر عصيا عني؟ اروني وانا اقبلك مائة قبلة .. يعني ؟ لما اروني اعجبك . فرضي عني . تحبيني . ولما تحبيني تعليني اليس كذلك؟ بعد الزواج.. واذا لم يتحابا بعد الزواج ؟ ولم يذهب بعيدا ؟ هذا محمود .. أدب أصل .. كمال. ماذا ينقصه؟ وسيرة أيضا. لابعلا عليها .. اليس كذلك ؟ لم يتحابا من الاول يا ماما ، تزوجا على فكرة فيما بعد .. بعد الزواج . والهيبه حيبة ؟

وسكت اتأملها . واستمتع بلذة الشعور بالطفلة . فتهيأت تقول

ـ والله يابني لااعرف . انا علمتكم وخلص ضميري يا سعاد يا بنتي . لكن عمر يحبك يا سعاد . والله يحبك . لو تسمعين كلام عمتك . كيف تتصرف يا سعاد ؟ كيف تقول له يا بنتي سعاد لا تحبك ؟!

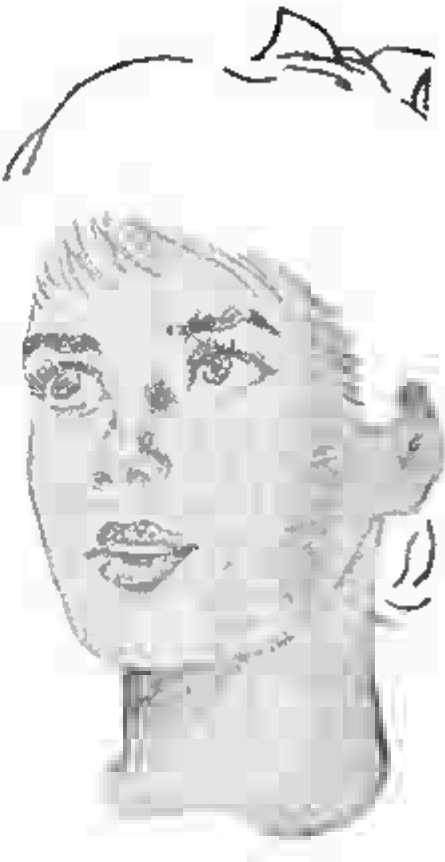

امي ، واخي ، وانا ، والصيوف عمتي وزوجها والخاجة سنية ، وعمر .. جمعتنا غرفة الصيوف ، نشرب الشاي ونتبادل المجاملات ..

عمر !

لم اكن اعرف شيئا يبرر حضوره مع والديه لزيارتنا بعد ما دار بيننا من اسبوعين ، صحيح ان امي اضاعت لوسوسة عمتي فاحدث اخي ودهبت بزورهم ، حتى يبقى الود ... وان رفضنا ، .. لكنني احسته بنفسي فكيف ياتي معهما ليجلس قبالتي في هدوء يتسم كان شيئا بيننا لم يكن ؟!

ثم انني لم اعرف بخبر هذه الزيارة الا ظهرا ، ونحن نتناول الغداء قال اخي فجاة بتمني: امي ! ، ماما ، الحاج نصيف والخاجة سنية يزوراننا بعد الظهر

الدكتور عمر كلمني في المكتب ، هو حاضر معهم ، .. فاذا هي تجاوبه ببساطة ، . اعرف يا بني ، عمتك كلمتني ، ، وصرح كياني بجميع ، الا انني حشرت شعتي بين اسناني وكظمت غيظي ، هكذا ! دون مراعاة لشعوري؟ ويقولون ان المراة تحررت ! حسنا عليات .. اليوم وغدا وكل يوم ، هو عمر وانا سعاد ، لن ينال مني شيئا عن طريقكم ابدا ، تأمروا ، تأمروا ، تأمروا على امروحه الا اذا احسى ... اعترف بوجودي ..

واتى ، وجلس قبالتي يرشف الشاي في هدوء ويتنسم !

وتناولت كيس الصوف احرق قبلي

اضطرابي ، اعقد غرزة داخل غرزتين .. حتى تطرقت عمتي تقول

ـ وبعدين معك يا سعاد ! عليك نسب يا بنتي ، شغل شغل شغل ؟! دعي التريكو قليلا يا شيخة وتسلي معنا اسمعينا كلمة .. حكاية ، اي شيء .

كان من الخاطر ان يتناول عمر صمتي فتشبهه شيء خجل او استحداء ، فارخيت يدي اطيعها

ـ حاضر يا عمتي ، لا مؤاخذة ..

ورفعت عيني فمنحتها ابتسامة عمر ونقلتها الى وجه عمتي فاثارتني نظرتها المتطلعة ، وتشبثت نظرتي بعنقها ، اتصور اصابعي تحيكه بخيوط الصوف الى ان تتسم الا تعود تتدخل فيما لايعنيها ، وبيت سوسن بوادر نقمتي فهبت لانقاذ الموقف

ـ دعك منها يا عمتي ، انا احكي لك نكتة ، تحبين النكت طبعا ياعمتي ؟!

وتنهدت عمتي ، ونظرت الى امي وهي ترم شفتيها فتكومهما على احد جانبي فمها ، ثم اجابت باستياض

ـ احكي يا سوسن ، احكي يابنتي!

ـ مرة كانت واحدة تحب بنتها بشكل غير عادي ، الحقيقة هي كانت تحبها لكن حبي لا تصدقي يا عمتي ، وفي يوم ارادت ان تكحلها ..

اكتفيت بهذا القدر من نكتة سوسن، ودهبت استرجع ما حدث غداة اجتماع غرفة الصيوف الاول منذ اسبوعين

كنت قد افلحت في التاثير على امي

فسلمت او كادت ، قبل ان تستدرك .. ، لكن عمر يحبك يا سعاد .. كيف نقول له يا بنتي سعاد لا تحبك ؟! ، .. اذ ذاك كان من السهل أن اتظاهر بالتفكير في مخرج لهذا المأزق ، فأشرد قليلا ثم اقترح عليها ان اواجهه بنفسي وانهي الأمر معه . وكم كانت دهشتي عندما تبسمت الى انني شردت فعلا ، اتخيل عمر وقد فاجأته فلم يملك الا ان يحتج في حيرة ، لكنني احبك ياسعاد، والله احبك ... ، غير انني استطعت ان استرد شارد وعيي بسرعة ، وقلت لعون الأمر

ـ المسألة بسيطة .

ـ بسيطة ؟ كيف يا سعاد ؟

ـ اذا كان لا يمكنكم ان تقولوا له ذلك فيمكنني انا ...

ـ انت ؟!

ـ من غيري ؟ اليوم موعد قياس الضغط .. أذهب معك وانتهز الفرصة واكلمه .

فما كان منها الا ان ضربت صدرها تصيح

ـ يا خبر يا سعاد .. والله كان أحوك بدبحنا ! واحد يريد ان يخطبك فتدهي اليه لتقولي له احبك ولا احبك .. من يسمح لهذا ؟!

احدث ثورتها لحظات ، ثم ادركت سذاجتي وعبثي كيف ؟ كيف أحار عقلي احتمال ان تقبر امي مثل هذه الحماقة ؟ ربما لو كنت فاجأتها في العيادة وتحدثت الى عمر ، ربما سكتت عندئذ ، أمام الامر الواقع !

وصلصل جرس التليفون فقمت احاوره ، واذا عمتي تسأل عن صحتي! وبينما انا اداورها خطرت ببالي الفكرة التليفون ! اكلمه في التليفون ، واوفر عليه حرج مواجهتي وانا ارفضه ..

***

ارعبتني فجاءة عمتي العالمة عندما الاشياء ، ووجدتهم يضحكون حينما فاجأتهم ببعض ضحكات فاترة ..

واستأنفت سوسن

ـ نكتة أخرى ، حبيبة ؟!

فصدها محمود والابتسامة تغيب عن شفتيه

ـ كفى يا سوسن ، كفاية ..

حرت سوسن كتفيها وقلبت شفتيها السفلى وعلقت حاجبيها ، وتراجعت في مقعدها تعول وهي تفقد حركات معلوب على أمره

ـ امرك يا باشمهندس .. امرنا لله يا باشمهندس !

وخيم الصمت ، ثم تكلمت امي تحيي ضيوفها ، اهلا .. اهلا .. أنستم ، .. واختلست النظر الى عمر فضبطني، ضبطتني عيناه .. كان يبتسم لي ، بشعل لغاة وعيناه على وجهي تبتسمان !! وحولت وجهي أنصت الى عمتي تقول ، اهلا يا حاجة ، زارنا النبي والنبي .. ، وزوجها يردد وراءها

« شرفت يا حاج .. شرفت يا دكتور ، شرفتم .. »

ولاحقتني نظرات أمي حتى اصطدمت عيني ، تومي، الملتصق بالسكوت وتحدق

ولم أتحرك فحسبتني لا أفهم ، واستمرت تومي، وتحر عيني ، فلما ضاقت ذرعا باصرارها رميت به الى سوسن

ـ سوسن قدمي ، عمتك لم تأخذ شايا .. والدكتور !

وقامت سوسن فقدمت الطبق الى عمر ، واحدة واحدة فرابطت تلح أن يأخذ ثانية

ـ تفضل .. واحدة أيضا .. هذه بسكويت سعاد .. تفضل .. رطل ونصف لبن ، ثلاث أقاب دقيق وزرد ، عسل وطلين سمن وعشرين بيضة .. يالله ماذا تعمل ؟ ليالس الآداب في الدولاب أحوجنا أحمد لا نشتغل !

وضحك عمر ، وضحكت .. حييتي يا سوسن !

لم تقنع سوسن ، استحثها نجاحها في اضحاكنا لتدارت تحكي قصة بسكويت سعاد باضافات جديدة .. كيف يعجن ، كيف يسوى ، وكيف يؤكل ! واستهوت فرصة فوضى الضحك ونظرت الى عمر ، وضغطته ، ضغطت عيناه على وجهي تمثال عيني ابتسامة دافئة .. عالجت ان اقاومها ، اصدها ، أنكر الطمأنينة التي نزلت بها قلبي ، فلم أطق . لم يبقى الا ان أخذب نظري الى لوحة وراء ظهره تمثل أمي والمرحوم ابي في ثياب زفاف مطلع القرن العشرين ومع ذلك لم تفارق ابتسامته عيني .. اختفت صورة أبي من اللوحة تدريجيا وانطبعت مكانها صورته .. وذكرت حديثي معه من أسبوعين ، طفا الى سطح فكري فتناوله حيال سماعة التليفون يرد على

ـ آلو ..

ـ آلو .. دكتور عمر ؟

ـ دكتور عمر يا هانم .. اي خدمة ؟

ـ صباح الخير يا دكتور ، انا سعاد عبد السميع ..

ـ أهلا .. أهلا ..

ـ دكتور عمر ...

ـ نعم يا آنسة سعاد ، خيرا ، كيف حال الوالدة ؟

ـ دكتور عمر ، حضرتك طلبت يدى وانا ...

كنت أتوقع اننى لن أكاد انهى عبارتى حتى يبادر بالكلام فاكتفى انا بالرد والدفاع ، لذا سكت . غير أنه لبث صامتا بعض الوقت ، فلما تكلم بدا لى صوته مضطربا .. قال :

ـ لى الشرف يا آنسة سعاد ، لكن .. انا يسعدنى .. لكن .. الواقع ..

ـ انا آسفة يا دكتور .

ـ ...

ـ انا آسفة !

ـ ممكن .. ممكن اعرف السبب ؟

ـ دكتور عمر .. اظن انك فاهم !

وللمرة الثانية لم أطق جوابا ، فاستجمعت شجاعتى بسرعة

ـ اظن يا دكتور الزوجين لا بد ان يحبا بعضهما ليستطيعا .. ليستطيعا ان يواجها الحياة معا ..

ـ يعنى انت ...

ـ انا آسفة ، انا احبك .. قصدى اعرفك ، قصدى كاحى ، لكن ...

ـ آنسة سعاد .. يمكننى ان أسأل سؤالا جريئا ؟

ـ تفضل ، لست محجبة ؟

ـ شخص آخر ؟

ـ لا ، لا ابدا ! لكننا ...

ـ لكننا ماذا ؟

ـ لا نكاد نعرف بعضنا ..

ـ لا نكاد .. تقابلنا عدة مرات ، وانا ... الحقيقة ...

وفجأة سكت كما لو كان قد اقتنع بوجاهة اعتراضى ، وانتظرت أن يتم حديثه فلما طال صمته تساءلت واصابع يدى الخالية تلف خصلة من شعرى وتشدها

ـ خلاص يا دكتور ؟

ـ خلاص يا آنسة سعاد ، انا آسف

ـ لا مبرر للأسف ، هكذا احسن ..

ـ فعلا احسن

ـ انا شاكرة ..

ـ العفو .

ـ عن اذنك ..

ـ تفضل ، سلمى على الوالدة .

ـ يصل ، عن اذنك ..

كنت اعلم ان « الاتيكيت » يسمح لى أن أضع السماعة اولا ، ومع ذلك لم أضعها الا بعد أن سمعت صوت انقطاع الاتصال من ناحيته ، ثم لم أكد اضعها حتى انقضضت نفسى ، ودحلت غرفتى فارويت ، كنت أعتقد أننى انهى بتصرفى هذا الأزمة التى سببها مشروع خطبته لى عن طريق محور « امه ـ عمتى » فوجدتنى ارقد آخر اليوم وفى صدرى ازمة جديدة لا اعرف لها على التحديد سببا .

لماذا ؟

عمة وانتهت .. فهيم انقاضى ، قلقى وحيرتى واضطرابى ؟

كان محمود لطيفا ، لم يشر الى الموضوع بكلمة بعد عودته من عمله .. كذلك لم تقل امى شيئا ، لم نحاول ان نستأنف حديث الصباح او كلام البارحة .. وسوسن ايضا حفظت من لهوها وسخريتها ، وقصرتهما على معاكستى بنظراتها وسعالها بين الحين والحين !

وعمر كان مهذبا ، هادئا ، رصينا ، لبقا .. فلماذا احجمت عن الذهاب مع امى الى عيادته مساء ؟

لماذا حتم على صدري شعور الخيبة ، وأرهقني ... فلم يجرني منه ... سوى ظلام الندم ، لماذا ٠٠ وقد رفضت غيره من قبل ونعمت بالراحة ؟!

لماذا ؟ لماذا ؟

لأنني احبه ! كنت احبه من البداية !

عرفت ذلك بعد أسبوع من الصمت والسهاد ، بدأت المعرفة شكا لم يزل يراودني فأرفضه فيعاودني الى أن رضخت وسلمت ٠ وفي هذه الأثناء كانت عمتي تعمل جاهدة على اقناع أمي بضرورة تأجيل « الرد » ، والذهاب معها لزيارة الحاجة سمية ٠ ولم تكن أمي بحاجة الى من يقنعها بأن العريس «لقطة» ، ولكنها ظلت مترددة بشأن الزيارة الى آخر لحظة ٠ ومن خلال أحاديثهما التي كنت استمع اليها اتفاقا ـ وقصدا ـ استنتجت الحقيقة المخزية ، أن عمر لم يعهد الى أمه بطلب يدي ٠٠ غاية الأمر أنه صارحها باعجابه بي وحبه لي ٠٠ ربما ، مما كان من عمتي الا أن تشطب بفرض عليها صوري وتحدثها بمحاسني وأخلاقي ٠٠ ومهارتي ، وانتزعت منها تعويضا بخس « النفس » وتمهيد « الجو » !

وحين جئوني ٠٠ وانروت عاجزة لا املك أن ارد أمي عن حر أمي والانطلاق وراء صوتي ، قصرت شجاعتي على اشتمال هوان مصارحتها بأني كلمت عمر ورفضته وهو الذي لم يطلبني ! وهكذا انتصرت عمتي ، ومضت الأيام التالية في حالة من الذهول والشرق لا أزال ادكرها فأفرغ ... أحبه ، لا أستطيع أن انسى بكلمة ٠٠ يطلبني لا أحبه !

كنت لا أزال أنظر الى خيال عمر في اللوحة وراء ظهره عندما سمعته يقول :

ـ مصادفة غريبة ، آخر سنة لي في الثانوية كنت أسكن مع عائلة بنتها الكبرى ٠٠ لن تصدقوني ، صورة طبق الأصل من الآنسة سعاد ٠ حتى اني أول مرة شاهدت سعاد كاد لساني ينسق ويقول ايها ٠٠

ونسق لسان سوسن يعلق :

ـ حلو ، رائع ... ايها عبدالسميع ! فرمحر أخي كهر وطنوا ديله ،

ـ سوسن !

وحدت أن يخرج عمر ، فاذا هو يلتفت الى سوسن يبتسم ويجاريها بلهجة طبيعية وكأن هربا لم يرمحر !

ـ لا حلو ولا رائع يا سوسن ، الحقيقة شمسا وبسيطا وسكر النيل ٠٠ هذا كله يلون خيالنا بعدوية مختلفة تماما ، يجور في أعيننا ، لكن ٠٠ لكننا لا نرى الا بأعيننا ٠

كانت كلماته الأخيرة موجهة الى ، فبينما هو يختم عبارته دارت نظرته تتمدد وجهي وتطل في عيني ٠٠ وأحسست سخونة الحياء تسري في وجنتي ، وتداعى الى خاطري موقفي يوم مرضت أمي فبادر اليها وفاجأني حافية عارية الذراعين ٠٠ ليمد أمي لقيت مرضتي لاتكام ولم أدعها ، قلت وأنا اغالب خجلي :

ـ لكن العينين يا دكتور لا تكشفان جمال الروح والعقل ٠٠ وهما الأهم !

فاشرقت عيناه بفرحة ظاهرة يرد علي :

ـ والله ان كانت غاية العينين النظر ٠٠ مجرد عملية النظر السطحية ، فالحق معك ٠ لكن هذا استعمال خاطيء للعينين

.. المفروض أننا نبطر لنعرف ، لنقارن لنستنتج ..

واحتجت سوسن :

ـ لكن هذا موضوع آخر يا دكتور ، لامؤاخذة .. لو أنك اندمجت في المناقشة مع سعاد فلن تسمع أبدا حكاية صاحبك عبد السلام !

فضحك عمر ، وقال ونظرته معلقة بعينيها لا تتحول :

ـ خليك يا سوسن ، يا آنسة سعاد .. الواقع أنك قلت نفس الكلام الذي قالته ايضا لصاحبي المهندس عبدالسلام.

ووجدتني أسأله :

ـ وبعد ؟

ـ الحقيقة أنه طلب يدها هكذا فجاة من غير مقدمات .. صحيح أنه قد زارني قبلها وقدماء تعمقان أثرهما على سلم المنزل .. لكن الناسبة لم تسنح لنجلسا معا او يخرجا معا فيتعرفا بعضهما البعض ويتفاهما ، وفي يوم عزم وتوكل ، ووقع عليها كالسبع .. واعطني يدك يا ابها ! صاحبتنا ظلت تضحك أسبوعا ، ثم ارادت أن تشعره بلباقة بالأمر .. ولا فائدة . كيف لا تحبه ؟ أسمر شهم ، جميل .. جده الكبير حوفو .. ولن تمضي شهور حتى يصبح مهندسا مثله السمع والبصر ! النهاية ، ظل يطاردها ويضايقها حتى قالت له يوما : اسمع يا حبيبي .. انا لا يمكن ان أتزوجك ما لم احبك ، ولا يمكن أن أحبك ما لم اعرفك ، ولا يمكن ان اعرفك ما لم اجلس معك مرة ومرة فتتكلم وتناقش وتتفاهم.

وانت ايضا .. انت لا تعرف مني غير شكلي .. فمن أدراك انك تحبني حقا ؟!

توقف عمر يقدم لفافة لأبيه وأخرى لزوج عمتي ، فقالت عمتي تعبر عن تبرمها بعد الحروف :

ـ اكمل يادكتور ، اكمل !

وادرك في دهشة خاطر مكر فاندفعت أقول :

ـ يكمل ماذا ياعمتي ؟ عبد السلام واعقها طبعا .. فمرقها حيدا وفهمها وعرفته وفهمته . تاكد انه يحبها ، وادركت هي انها !!

والتفت الى عمر اسأله :

ـ اليس كذلك يادكتور ؟ !

تعبر وجه أمي ..

وعلقت سوسن في دهشة :

ـ عجبي !

وقال عمر بعد ان مال على يد زوج عمتي واشعل لفافته :

ـ تمام ..

وسعل محمود ، طاب له السعال فسعل ..

وصاحت عمتي مستنكرة :

ـ بنت من هذه؟ مقطوعة من شجرة؟! هكذا تتفاهم مع الرجل .. لا أم ولا اب ولا عمة ولا خالة ؟! فتدخلت أمي تعربها :

ـ يحور انها يتيمة، لابد انها يتيمة.. ماذا تفعل يا كبدي ؟ !

وتكلم محمود بصبر اليتم الذى فرضته امى على ايها

ـ الحرب تركت ملايين الأيتام ..

فصحك عمر يستدرك

ـ صحيح الحرب يتمت عشرات الالوف من شباب الشعب الألمانى ، لكن ايها ليست يتيمة ـ كل الحكاية أن الأمهات والآباء هناك ، الأقارب على وجه العموم لا يتدخلون فى مسائل الزواج الا فى النهاية .. فى البداية وفى النهاية ـ فى البداية يربون الشاب ، والأولاد يفهمونهم قيمة الزواج ومعناه ـ يربونهم ويفهمونهم جيدا ثم يتركونهم وشأنهم ، وفى النهاية ، عند ما يتفاهم الشاب والشابة على كل شىء ، يذهب المربيس للعول لأهل حبيبته من هو .. ليتبت لهم انه اهل لها .. ليطلبوهم يدها ، طبعا الأهل لا يكونون ناشين ، ولكن بعظتهم تكون عالبا صامتة محايدة ، رقيبة من بعيد لا تتدخل الا اذا دقت أجراس الخطر .

وصحت دون تفكير !

ـ معقول !

فهتفت سوسن تؤيدنى :

ـ واى معقول ؟ معقول وابى معقول!

وعاد محمود يسأل ، غلب عقله يقول متحفظا

ـ معقول ، بشرط ان يكونوا غير ناشين .. حقا !

واردفت أمى على استحياء ، بعد أن نقلت نظرتها بينى وبين عمر أكثر من مرة

ـ معقول ..

فقرت عمتى تضحك !

ـ معقول معقول ، مالها .. على راى المثل ابى راض وانا راض !! وعلى رايه يا داخل بين البصلة وقشرتها !

***

معقول !

معقول ..

معقول ، معقول ..

لم ام ، انا ووسادتى .. أوشوشها وتوشوشنى ، معقول .. معقول .. من يا سعاد ؟ عمر .. حبيبى عمر ياوسادتى الغالية ! صبرا .. عدا بتزوج فاحملك الى عشنا نريح رأسى على صدرك ! لكنه لم يقل شيئا ، عن الزواج يا سعاد ! يا سادجة .. وابتسامته ؟ وفرحته ؟ ويده تختلج فى يدى وهو ينصرف آخر الصيف .. وتهاويل الضياء ترقص فى عينيه ؟ !

وعند ما بدا النوم يسكرنى ، وأشعة الفجر تتسلل الى معدعى فيتسع وتشيع فيه الطمأنينة ، كنت أراض وسادتى أن قصة ايها وعيد السلام مختلفة تماما .. مؤلفه من أولها الى آخرها !